الدور السياسي لبني حمود الأدارسة عصري الفتنة والطوائف

الدكتور عمر بوخاري، جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص:

لم يكد القرن الرابع الهجري يوشك على النهاية، حتى برزت عائلة بني حمود الذين تطلعوا الى الاندلس لإحياء مجد اسلافهم من الادارسة الذين تلاشت دولتهم على يد الامويين في الاندلس فبرزت شخصية علي بن حمود بعد احداث الفتنة القرطبية .

إذ كان يرى أنه المخلص الوحيد الذي يقع عليه الاجماع، خاصة أنه ينتمي إلى عائلة من أشرف العائلات، ومن جهة أخرى فإن بني حمود قد تبربروا في وسط قبيلة من أعرق القبائل البربرية في بلاد المغرب، وهي قبيلة زناتة.

Abstract: The fourth century AH was almost at its end when the family of Bani Hammoud emerged to look forward to Andalusia so as to revive the glory of their ancestors from the idrissids, whose state disappeared by the Umayyads in Andalusia. Ali bin Hammoud's personality came into view after the events of the Cordove sedition. He saw that he was the only saviour on whom unanimity was based, especially because he belonged to one of the Nobel families. On the other hand, Bani Hammoud immersed in the middle of the oldest Berber tribes in the Maghreb, it is the tribe of Zenata.

لم تنقطع صلة احفاد إبن قنون بمعاودة بناء المجد الذي بناه اجدادهم من الادارسة منذ أفول نجمهم على يد الامويين بالاندلس، ولم تعوزهم أسباب المجد من التطلع إلى بنائه في بلاد الامويين أعداؤهم بالأمس، حتى سيقت لهم أسباب الامتطاء، عندما إندلعت الفتنة ببلاد الاندلس وتدحرجت فيها رؤوس الخلفاء والامراء من الامويين، وتدافعت عليهم عناصر

المجتمع من جميع الاجناس من البربر، والصقالبة، وغيرهم وهم، أدوات الامويين الضاربة في المحن، والمجابهات إلى أن كانت خلافة سليمان المستعين الذي إهتدى إلى وضع مقاليد الامور في إقليم جنوب الاندلس في يد رجلين من أحفاد الادارسة، علي والقاسم إبنا حمود، ومن هذه الجهات بدأت معالم الوصول إلى السلطة تتجلى، بمؤازرة البربر ومن ضاقوا ذرعا بحكم الامويين .

دولة بني حمود بالمغرب الأقصى:

يرجع نسب بني حمود إلى الأدارسة العلويين الذين هم من سلالة إدريس بن عبد الله بن حسين بن الحسن بن(ابن ابي زرع، أ1999:ص23) علي بن أبي طالب. وكان لإدريس خمسة إخوة وهم: إبراهيم، وعيسى، ويحي وسليمان (البكري، أ2003: ج2 ص23) وكان محمد النفس الزكية هو من بويع له بالخلافة، من آل البيت في آخر أيام الأمويين. ولما أنقضت دولة الأمويين وقام الأمر لآل العباس، وولى منهم أبو جعفر المنصور، خرج عليه محمد النفس الزكية، ودعى لنفسه في المدينة وأراد جعفر المنصور أن يستميله بقبوله الأمر الواقع، وجرت بينهما في ذلك مكاتبات، ومحاورات في الأفضلية، فلم يتنازل فيها محمد النفس الزكية لما رأى في ذلك من أحقيته في الإمارة.

فلما إنسدت بينهما أبواب الوفاق، شهر كل منهم سيفه وقامت الحرب، التي انتهت بمقتل محمد النفس الزكية وذلك في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقتل معه جماعة من آل بيته ولوحق من بقي منهم، و تقفى آل العباس آثارهم في كل فج سلكوه. (السلاوي ،أ. 2007: ص28)

وخفقت دعوة آل البيت مدة من الزمن حتى كانت موقعة فخ (هو موضع فيه مويه، على مسيرة ثلاثة أميال من مكة شرفها الله تعالى، وكانت الواقعة في يوم السبت الذي يصادف يوم التروية الثامن من شهر ذي الحجة من سنة تسع وستين ومائة، الجزنائي،ع.2008:ص10ــ11 .)

حين عزم الحسين بن علي بن الحسين المثلث بن الحسين المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، الخروج إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة، أين كان بنو العباس وشيعتهم في انتظاره، فلتحم الجيشان في الحزم واقتتلوا قتالا شديدا، و سقط الحسين وحزت رأسه، واختلط المنهزمون بالحجاج: فذهبوا في كل اتجاه.

وما هو جدير بالإشارة والذكر في هذه الحادثة أن صاحب روض القرطاس، قد اخلط بين القوة التي قادها الإمام محمد النفس الزكية ضد الخليفة أبي جعفر المنصور سنة 145هـ وبين ثورة الحسين بن علي بن الحسين المثلث على الخليفة موسى الهادي في موقعه فخ سنة 169هـ، فجعل الثائرين واحدا (ابن أبي زرع،أ. 1999: ص 17) وقد تصرف في ذلك مؤرخ المملكة المغربية الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في الطبعة الأولى أين قام بتصحيح الخطأ واكتفى بالتنبيه في الطبعة الثانية للأمانة العلمية.

وكان من بين من حضر الواقعة من أهل البيت إدريس بن عبد الله الذي أفلت من سيوف العباسيين (عبد العزيز،أ.2013:ص38.) ونجا من الموت المحقق ،وتمكن من الفرار مستترا صحبة مولاه راشد، ولحقه بمصر، وكان على بريدها يومئذ واضح الذي كان متشيعا لأهل البيت، فلم ير بدا من ابعاد إدريس عن مصر بعيدا عن أعين الوشاة فحمله على البريد الى المغرب صحبة مولاه راشد، ونزل مدينة وليلى سنة اثنتين وسبعين ومائة (السلاوي،أ.2007:ج1ص124)، واستقر بها، وتوافدت عليه القبائل مبايعة، وكان أول من بايعه قبائل أوربه (إبن أبي زرع،أ. 1999: ص23) بقيادة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوروبي، وكان لهذا الأخير دور كبير في دعوة قبيلة أوربة إلى مبياعة إدريس، والالتفاف حوله، ومبايعته بالإمامة لشرف انتسابه إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت قبيلة أوربة البرنسية أعظم قبائل المغرب، وأكثرها عددا وأشدها قوة ،وبأسا وأحرها شوكة. فلم تجد القبائل الزناتية بدا من تحذو حذوة مثيلاتها البرنسية. ووفدت عليه قبائل زواغة، وزواوة، وسدراته،وغياثة، ومكناسة، وغمارة، وكافة البربر. (ابن خلدون ،ع. 2002:ج4ص15)

وما إن استوثق أمره وقويت شوكته، شرع في بناء جيش قوي زحف به على البلاد المجاورة، تامسنا، وحصون قندلاوة، وبهلونة، ومديونة، ومازار، وشالا، وتدلا. ثم اتجه نحو

المغرب الأوسط يقصد تلمسان، التي لم يواجه فيها أية مقاومة، وخرج إليه محمد بن خزر المغراوي، مستأمنا ومبايعا، فأمنه إدريس وسائر زناتة من مغراوة، وبني يفرن (ابن خلدون ،ع. 2002 : ج4ص15) ولاشك أن هذا الاستسلام يعود بالدرجة الأولى إلى كون قبيلتي مغراوة ،وبني يفرن، ورحبتا بزناتة المغرب الأقصى، واستهجنت المصادمة والاقتتال مع بني العمومة. (محمود ،إ. 1985: ص63)

وبغزو تلمسان اتسعت الرقعة الجغرافية للسلطنة الإدارسية، وقويت شوكتها.(ابن خلدون،ع. 2002:ج4 ص16) وكانت هذه أمنية إدريس الأول في أن يبسط نفوذه على كامل العالم الإسلامي بشطريه المغربي والمشرقي، وحلم بذلك من جاء بعده. لكن المنية حالت دون ذلك ،إذ بعث الخليفة هارون الرشيد، سليمان بن حريز المعروف بالشماخ، على هيئة طبيب هارب من بطش العباسيين فسقاه سما فمات سنة 175هـ-791م. وكان إقدام هارون الرشيد على هذا الاغتيال، خوفه من التفاف أهل المشرق حوله.(البكري ،أ. 2003:ج4ص306) واستمرت الدولة مرهوبة الجانب في عهد ولده إدريس بن ادريس الذي اتبع سياسة أبيه في تقوية قبضة المخزن في الداخل والتوسع في الخارج، مؤيدا من قبائل البربر الذين هم من الداخل، ثم العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس،(محمود ،إ. 1985:ص76) وهم من القيسية والأسد، ومذحج، وبني يحصب، والصدف، وغيرهم. وحتى يعزز مكانتهم ويستعين بهم على غيرهم من القبائل البربرية أجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعل بطانته دون البربر. يقول صاحب روض القرطاس: «لأنه كان فريدا بين البربر ليس معه عربي». (ابن ابي زرع ،أ. 1999:ص35)

وحتى يكبح جماح القبائل الزناتية -إذا ما هي فكرت في العصيان- عمد إلى فتح الباب على مصرعيه لكافة العناصر الأخرى من فرس وعرب ،كما أفاد من جهد اليهود والنصارى في مجال المال والعمران. (محمود،إ. 1985: ص76)

ظلت دولة الأدارسة على ما هي عليه من المجد والسؤدد في عهد إدريس الثاني إلى أن أفل نجمه سنة 213هـ -822م، فخلفه ابنه محمد الذي أقر لإخوته سياسة الانتزاء وتفرقت البلاد بناء على رأي جدته كنزة أم إدريس بن إدريس، وثارت الحرب داخل بيت

الأدارسة وتمزقت وحدتهم وتعرضت لاضطرابات عنيفة هزت أركان دولتهم من الداخل بسبب التهافت على الإمامة من جهة وبسبب تهديدات الفاطميين والأمويين من جهة أخرى. (فيلالي ،ع. 2007:ص91)

وازداد شرخ الانقسام إلى عدة فروع، المحمديون من ولد محمد بن إدريس الثاني وكان ولاؤهم لعبيد الله المهدي بإفريقية، ثم فرع المعمريين من ولد عمر بن إدريس الثاني (شريفة ،ر. 2005: ص101) وهو جد الحموديين الذين أقاموا دولتهم بالأندلس في عهد ملوك الطوائف .

على أية حال فإن اقتتال الإخوة من بني إدريس قد أتى على بنيان دولتهم من الأساس إلى أن كانت نهاية ملكهم في مدينة فاس على يد موسى بن أبي العافية (هو موسى بن أبي العافية بن أبي باسل بن أبي الضحاك بن الجدول بن تامريين بن فرديس بن ونيف بن مكناس بن وسطيف المكناس أمير مكناسة، ملك مدينة فاس سنة 313، وملك بلاد تازة، وتسول والكاف وطنجة، والبصرة، وسائر بلاد المغرب نقض الدعوة بلفاطميين ومال إلى المروانية ثم عاد إليها تحت ضغط بني زيري، ومات سنة 341، (إبن أبي زرع،أ: ص100) (إبن عذاري، أ. : ج1ص194ــ200ــ202.) الذي استولى على بلادهم فأجلى جميع الأدارسة عنها، يسيرون على وجوههم نحو قلعة حجر النبير في حالة من القهر والبؤس، فحشروا فيها مجبرين على القعود فيها تحت حراسة أبي الفتح التسولي في ألف فارس بمنعهم من التصرف.

وظلوا هناك مبعدين تتناوشهم قوى الفاطميين وأنصارهم الصنهاجيين، والأمويين وأنصارهم الزناتيين ،إلى أن انتهت رسوم عزّهم على يد المروانيين. (صالح ،أ. 2008:ص113) ومهما يكن من أمر فإن مجد الأدارسة لم يمت في عقبهم من بني حمود الذين سوف يحاولون استرجاع مجدهم الغابر في أرض الأندلس.

جواز بني حمود الأدارسة إلى الأندلس:

ينتهي عصر الأدارسة بالمغرب الأقصى بالقضاء على آخر محاولة لاسترجاع دولتهم وهي المحاولة التي كان يقوم بها الحسن بن قنون في عهد الحكم بن عبد الرحمان، الذي استطاع أن يقضي على ثورته بقيادة وزيره غالب بن عبد الرحمان، واستسلام الحسن بن قنون الذي وفد على الحكم رفقه سبعمائة رجل أنجادا، يعدلون سبعة ألاف من غيرهم حسب قول أبي حيان. (حيان ،م.2006 : 145)

ثم ما لبث الحسن أن عاود الكرة بعد عودته من مصر مؤيدا من بلقين بن زيري الذي زوده بجيش قوامه ثلاثة ألاف فارس، و بني يفرن بزعامة .يدو بن يعلى بن محمد و أخيه زيري، وابن عمه أبي يدّاس، وعدد كبير من العلويين الذين جاهروا بطاعته الذين يسميهم صاحب المفاخر أهل الفساد. (أبو صالح، أ. 2008: ص102)

وكانت له مع ابن أبي عامر، وقائع وحروب إلى أن وقع جيش إبن قنون في الهزيمة وقع ابن قنون في قبضة جيش المنصور، الذي أمر بتعجيله إلى قرطبة، وفي الطريق أرسل إليه من قتله وحز رأسه وحمل إلى المنصور، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وتسعة أشهر.. (إبن الخطيب، ل.1964:ص224)

وبقتله ركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرق جمعهم، وبقي منهم جماعة بقرطبة فكانوا في ديوان السلطان إلى أن ملك علي بن حمود الأندلسي فسما ذكرهم. (إبن أبي زرع،أ. 1999: ص 116)

وعن الملامح العامة لهذه الدولة يقول ابن الخطيب «وكانت مدة ملكهم ما بين إدريس إلى الحسن بن قنون مائي سنة واثنتين وستين وخمسة أشهر، وكانوا بين لحي أسد يكابدون دولتين عظيمتين من جهتها دولة الشيعة ودولة الأمويين، وكان سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان وإذا اضطرب وانقبض على معتصمهم بالجهة السبتية إلى أن ذهب منهم العين والأثر وعدم الخبر فسبحان من لا تغيره الغير لا إله إلا هو». (إبن الخطيب،ل. 1964:ص224)

ومع ذلك فإن الأدارسة لم يفتاءوا يتطلعون إلى استعادة حقهم في الخلافة، و (هو ما بينه ابن أبي زرع في روض القرطاس بقوله: «وكانوا ينازعون الخلفاء في ترك الخلافة». إبن أبي زرع ،أ. 1999:ص116).

وظل هذا رأيهم إلى أن تجلى هذا الطموح المكبوت في أرض الأندلس حين اندلعت الفتنة وكان سليمان المستعين، احد أقطابها، وهو الذي قاده البربر إلى سدة الحكم، من جهة جنده البربر وجهة من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب ،وهما القاسم وعليا ابني حمود. (إبن عذاري ،أ. 2009:ص113ــ114)ولما فتح المستعين قرطبة سنة 403هـــ-1013م، واستقر بها شرع في تعيين عماله في مختلف الأقاليم بالعدوتين الأندلسية والمغربية، وكان من جملة من كافأهم الطائفة البربرية فقد عين ست قبائل بربرية على بعض الكور الأندلسية.

فاعطى صنهاجة، كورة البيرة، وولي مغراوة، علي جوفي البلاد،وازداجية وبنو دمر على كورتي شذونة وموروروغيرهما من الحصون، وبني برزال وبني يفرن على جيّان وما ولاها غربا.

وفيما يخص بني حمود الإدارسة فقد أعاد القائد على بن حمود الإدريسي إلى المغرب، وولاه مدينة سبتة وعين أخاه الأكبر القاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء ومدينتي طنجة وأصيلا (إبن الخطيب ،ل. 1964: ص128) . دون أن ينتبه أنه وضع مفاتيح المضيق في أيد لم تكن موالية، وقد أدهش قرار الخليفة حاشية البلاط من البربر الذين أوصلوه إلى العرش، وقد لاموه على هذا العمل الذي وصفوه بأنه ضد مصلحة الدولة. (ابن عذاري ،أ. 2009:ج3ص114)

ولقد أزعج هذا التقسيم بني بزرال وعلى رأسهم عبد الله البرزالي الذي أسرع نحو سليمان مستفسرا ومؤنبا فقال: «يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب قال: نعم، قال له: أليس العلويون طالبين؟، قال: نعم، قال: تأتي إلى الأحناش وتردهم ثعابين؟ قال: نفذ الأمر في ذلك». (لويس سيكودي ،ل. 1996:ص19)

لم يكترث سليمان لهذا الاحتجاج، الذي ظنه انه بدافع المنافسة على المكانة التي قد يحتلها بنو حمود الأندلس وخصوصا أنهم من شجرة النبوة.

لذلك لم يكلف سليمان نفسه عناء التفكير في داعي الإجتماع ولا طرح السؤال على عبد الله عن دافع الاجتماع على تعيين الحموديين، فضرب الذكر صفحا وحسم الأمر بقوله: «نفذ الأمر في ذلك» معقبا على هذا الحكم، ولم يدر أن نهاية ملكه تكون مع يد هؤلاء الحموديين.

ولقد اعتبر العديد من المؤرخين على أن تعيين سليمان لعلي بن حمود على سبتة هو ضرب من الغفلة وسوء التدبير، ومن هؤلاء المؤرخين أبن حيان، الذي وصف هذه الغفلة وسوء التدبير بالذهول كما في قوله: «وهي الاتفاق الغريب العجيب على سليمان لما استوثق له الأمر ... اختياره لعلي بن حمود على تقدمه بمدينة سبتة رأيا ذهل عنه ... ولم يكن في الدعوة والقرابة أبعد منه على وهجهم عليه وسلبه ملكه وقتله وحول دولته ومزق عشيرته وإذا أراد الله شيئا أمضاه». (إبن عذاري،أ. 2009:ج3ص114).

وقبل أن يستقر سليمان المستعين في كرسي الخلافة . بدأت تطلعات على بن حمود في الظهور للظفر بالخلافة والتخلص من سليمان. ومن أجل أن يضفي على محاولاته نوعا من الشرعية أو الحق في ذلك، زعم أن هشام المؤيد قد أرسل إليه كتابا يقر له فيه بولاية العهد وأنه أوحى إليه بالخلافة من بعده.

وحول هذه الحادثة المفصلية في تاريخ المغرب الإسلامي نجد أنفسنا أمام طرحين مختلفين من حيث الدوافع وكذا الكيفية التي تم بها تبليغ على بن محمود بولاية العهد.

فرواية ابن حيان تتلخص في أن هشام المؤيد قد أرسل بالفعل بن علي بن حمود كتابه الذي يعده فيه بولاية العهد والخلافة من بعده، كما يبين الأسباب القاهرة التي كانت وراء حمل هشام على اتخاذ هذا القرار الخطير بقول ابن حيان: « وكان هشام عندما رآه من اضطراب أمر وثيقته من انصدام دولته بما منى به قديما وحديثا من تحالف بني عمه آل الناصر عليه، وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه». (إبن بسام، أ. 1998:ج1ص22)

أما ابن الخطيب فذكر أن بعض الموالي العامريين لما استاءوا من الخليفة سليمان المستعين بسبب اعتماده على البربر ،كاتبوا عليا بن حمود وأرسلوا له عهدا منسوبا إلى الخليفة ألأموي هشام المؤيد بخط يده يعهد فيه بولاية العهد والخلافة من بعده. (إبن الخطيب، ل. 1664: ص125)

وبعد القراءة المتأنية للنصين السابقين يتوضح أن الرواية التي قدمها إبن حيان تلامس عين الحقيقة أو تكاد ،لأن أول عمل قام به ابن حمود بعد القبض على سليمان هو محاسبته على هشام المؤيد وقتله بيده قائلا: هذا جزاء من قتل هشام، ثم هناك قرينة أخرى لا تدع مجالا للشك وهي لو أن البربر هم من أرسلوا عليا بن حمود، فكيف تحتج طائفة منهم على تعيين العائلة الحمودية على الجزيرة الخضراء، وطنجة وسبتة، وعليه فإن رواية ابن الخطيب تبدوا بعيدة عن الحقيقة.

رغم أن هناك تعضيد آخر لما ذهب إليه ابن حيان، وهو ما ورد في كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب،" قوله: «وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها، فراسلهم علي بن حمود المذكورة وقد حدث له طمع في ولاية الأندلس فكتب إليهم بذكرهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصرا بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه». (المراكشى،ع. 2006:ص 41).

ولم تمض سنة كاملة حين بدأ علي بن حمود يتهيأ، ويعد العدة للوثوب على على سليمان وسمت نفسه إلى الخلافة (دوزي،ر. 1963:ص153) مستمدا شرعيته من الكتاب الذي زعم أن هشام عهد له فيه بالخلافة ،وكان قد أفاده فائدة كبرى في الثورة التي أعلنها على الخليفة سليمان بن الحكم، ومما ساعده على المضي قدما نحو هدفه المنشود هو وجود أخيه القاسم واليا على الجزيرة الخضراء، وهي الجزيرة التي يمكن أن تكون قاعدة انطلاق إلى مالقة ومنها إلى قرطبة، بالإضافة إلى العدد الكبير من أمراء البربر المتواجدون في منطقة الجنوب التي يمكن أن تكون درعا قويا في مؤازرة الثورة و تكون أراضيها منطقة ارتكاز و انطلاق لمختلف العمليات التي يشنها جيش علي بن حمود. (المراكشى ،ع. 2006:ص 41).

فلما استكملت حلقات الإعداد للثورة جاز علي بن حمود إلى الضفة الأخرى ودخل مالقة سنة 405هـ-1014م، على حين غفلة من حاكمها، وانتزعها من واليها عامر بن فتوح احد موالي فائق الصقلبي.

وكان أول عمل قام به في سبتة هو قتل قاضيها محمد بن عيسى، وعميدها الفقيه ابن يربوع حين تأكد من عمالتهم للمسبقين الذي كان قد أرسلهما إلى مدينة سبتة للاستطلاع وتتبع آثار علي بن حمود حين بلغه أن هذا الأخير، يحضر للإطاحة به.

وبمقتل هذين الرجلين يكون علي بن حمود قد أشهر سيفه في وجه المستعين، ولم ينتظر طويلا، إذ بعث بكتاب إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري، يطلب منهما الإشارة في الجواز إلى مالقة، فأمراه بالقدوم على عجل، فتحرك علي بن حمود على الفور بالقطع والعساكر ودخل مدينة مالقة سنة 405هـ-14014م على حين غفلة من حاكمها وانتزعها من واليها عامر بن فتوح، الذي كان لا يزال على ولائه للخليفة في قرطبة، إلا أن علي شدد عليه الحصار واضطره إلى تسليم الحصن، ودخل مالقة وبايعه سكان مالقة واعتبروه قائدا للثورة خاصة انه من نسب شريف يكبرونه ويقدسونه، وأنه مؤيد من قبل هشام بن الحكم فانحاش إليه الناس، وتلاحقت إليه الجيوش البربرية من كل صوب، فجاءه خيران العامري على رأس كتيبة الصقالية، وزاوي بن زيري، وحبوس بن ماكس وأخوته وبنو عمه الصنهاجيون وبايعوه بالخلافة والطاعة.

فلما استكملت حلقات الإعداد للزحف على قرطبة، تحرك علي بن حمود على رأس التحالف العسكري الذي شارك في إعداده كل من زاوي وخيران، وحبوس وفي الوقت ذاته كان جيش سليمان في طريقه نحو مالقة لملاقاة جيش ابن حمود، فالتقى الفريقان في شهر محرم من سنة 407هـ-1016م ودارت الحرب بينهما فكانت الدائرة على سليمان وأصيبوا إصابة بالغة وطالتهم الهزيمة، ووقع سليمان في الأسر مع أخيه عبد الله وأبوهما واقتيدوا جميعهم إلى علي بن حمود ليقتص منهم.

ودخل المنتصرون القصر آملين أن يجدوا هشام المؤيد حيا، وذكر لهم انه قتل واتهم سليمان بإزهاق روحه، وامتثل أمام بن حمود ليتبرأ من دمه، وهو في جزع وهلع شديدين، فلم يصغ لهم ابن حمود، فامسك السيف فضرب أعناقهم جميعا وقال بلسانه الزناتي والبربري: «لا يقتل الزلطان إلا الزلطان» وذكر أن عليا قال لوالد سليمان وكان شيخا كبيرا: «يا شيخ: هكذا قتلتم هشاما؟، فقال الشيخ: لا والله ما قتلناه ولا هو إلا حي يرزق»، فلم يشفع له ذلك وانهال عليه علي بالسيف فقتله.(إبن الخطيب ،ل.2006:ص121.)

ومن الأهمية بمكان أن نقف على الأسباب والدواعي التي كانت وراء انتصار علي بن حمود على سليمان .بالرغم من الانتصار الذي أحرزه هذا الأخير على المهدي الذي كان مؤيدا من الأندلسيين والجلقيين، وما قام به سليمان من إخلاء قرطبة وما جاورها من العناصر البربرية التي كان يتقزز منها القرطبيين، هذه الأوضاع وغيرها كانت توحي بأن سليمان المستعين كان في مركز قوة،مما يجعله يقف أمام أي غارة دامية، ومع ذلك تلاشت قواته أمام جيش متواضع يقوده علي بن حمود القادم من العدوة الجنوبية،وعليه يمكن إجمال هذه الأسباب فيما يلي:

ـــ يُعد الكتاب الذي أرسله هشام المؤيد، يقرّ له فيه بولاية العهد، ويطلب منه في نفس الوقت إنقاذه من سليمان المستعين، بمثابة المطية التي ركبها علي بن حمود، فقد أكسبته الشرعية، والمطالبة بالخلافة في أوساط البربر وغيرهم.

ـــ الاضطرابات والقلاقل، وهشاشة الوضع السياسي في الأندلس ساعد الحموديين على التمرد وإزاحة الخليفة المستعين بالقوة.

ـــ شغور مركز الخلافة في قرطبة بسبب نظرة الكراهية التي كان يكنها أهل قرطبة لسليمان المستعين منذ أن دخل مدينتهم بالقوة بمعية البربر وما خلفوه من فظائع وقتل ونهب، وهو نفسه كان يدرك هذه الكراهية التي كانوا يظهرونها حياله، وهو القائل:

إذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفوني

يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

ــ تخلي عدد كبير من أنصار سليمان بعدما تناهى إلى أسماعهم قيام علي بن حمود في سبتة ومالقة خاصة عندما علموا أنه من بيت النبوة وأنه مؤيد من قبل هشام.

ــ اندلاع الثورة في شرق الأندلس التي قادها الثائر الأموي سنة 404هـ-1014م المعروف بالمعيطي (هو عبد الله بن عبد الله بن الوليد بن محمود بن يوسف بن عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد ين عثمان بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عقبة بن أبي معبط، كان متفقها بقرطبة ثم خرج إلى دانية والجزائر فبريع بها الخلافة ثم خلعه من هذا وفر إلى أرض كتامة، وكان أبوه محدثا ثقة وقد ولد بمصر سنة 300 ودخل الأندلس ولهم غصب كثير بالأندلس، ويكنى بأبي عبد الرحمان، كان حتى وقت قريب من عهد الطوائف يسكنه مع عائلته في قرطبة، ثم هاجر مع عائلته إلى مدينة دانية التي كان يحكمها مجاهد العامري والتف هذا وإتباعه حول المعطي ونصبوه خليفة عليهم سنة 405هـ-1014م وكان ظهور عبد الله المعيطي ومبايعته بالخلافة، بمثابة جبهة ثانية فتحت في وجه المستعين بما أضعف قوته العسكرية والمعنوية. (إبن عذاري ،أ. 2009:ج3ص155)

استيلاء بني حمود على الخلافة في الأندلس:

لم تكن الخيارات والقرارات التي انتهى إليها المستعين بعد تربعه على عرش أسلافه الأمويين في مستوى الجهود والتضحيات التي قام بها، حين قام بمكافأة من وقف إلى جانبه في هذه الحرب خصوصا عندما منح علي بن حمود ولاية سبتة وطنجة، يقول أحد الباحثين: «وهذا ما شكل خطأ حقيقيا على مستقبل الأندلس كرسه المستعين بارتكابه غلطة أخرى حينما منح ثقته لعلي بن حمود وهو إدريس يسعى إلى السلطة فولاه سبتة وطنجة وولى أخاه القاسم الجزيرة الخضراء، وبذلك أحكم لها السيطرة على قاعدة الأندلس وخطها الدفاعي». (عبد الوهاب ،أ. : ص86).

ولقد عده بعض المؤرخين موقفا غريبا لا ينم عن شخصية سياسية حاذقة حنكتها خطوب المواجهة ومن هؤلاء ابن بسام حين يقول: «... وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا هي بعده وإذا أراد الله شيئا أمضاه» (إبن بسام ،أ. 2011:ج1ص23) وكانت هذه

إحدى المطابّات السياسية التي حذره منها عبد الله البرزالي إذ تفطن بعواقب ذلك حين قال له أن هؤلاء الحناش صيرتهم ثعالبين وبالفعل فقد تحقق ما تنبأ به البرزالي فقد التوت عليه والتهمته.

ومن هنا يمكن القول أن سليمان المستعين قد وضع من حيث يدري أولا يدري حدا للمركزية السياسية التي أنفق فيها أجداده تضحيات جسام من اجل تحقيقها.

وعلى أية حال فإن علي بن حمود قد وصل إلى مبتغاه، وهو الإستحواذ على كرسى الخلافة وكان بذلك أول خليفة من أسرة الأدارسة العلويين في الأندلس (الحميدي،ف. 2004:ص33) ومن أجل ربأ الصدع مع القرطبيين فقد نهج في مستهل حكمه نهجا سياسيا معتدلا يطبعه العدل والإنصاف بين الناس حيث حرص أن يجلس هو بنفسه للمظالم وإقامة الحدود، وفي نفس الوقت كانت سياسته ترجي لما استمالة القربيين إليه، مكبلا إياهم بسلاسل الإحسان إليهم (إبن عذاري ،أ. 2009:ج3ص122) حتى فتنوا به أشد فتنة، وفي مقابل ذلك أبدى صرامته وقسا على البرابرة ،رغبة منه في إستمالة القرطبيين، وعاملهم بالحدود وأنزل بهم بعقوبات لأقل شبهة.

ومما يروى أنه قدم إلى مجلسه عصابة من البربر الأعيان لارتكابهم الكبائر، فأمر بضرب أعناقهم بحضور أهليهم وعشائرهم دون أن ينبسوا بشيء (إبن بسام ،أ. 1998:ج1ص60) وضرب أحد البرابرة على حمل عنب فلما سأله عن مصدرها قال: أخذته كما يأخذ الناس فأمر به فقتل، وطيف برأسه بسائر البلد (إبن عذاري،أ. 2009:ج3ص121) وبهذه الصرامة التي كانت بعيدة عن تكريس العدالة كما أسلفنا، إذ لا يعقل أن تزهق نفس، لكون صاحبها سرق عنبا. والادهى من ذلك أن يطاف برأسه في شوارع المدينة.

لقد بالغ علي بن حمود في الإساءة إلى البربر ليكسب ودّ القرطبيين ،فقد كان الأجدر به أن يمسك العصا من وسطها، بان يسوي بين الطرفين، وأن يحدب على الجميع في إطار سياسة يجد فيها كل طرف أمنه ومبتغاه.

ورغم ما بذله علي بن حمود في سبيل إرضاء القرطبيين إلا أنه آنس منهم الكراهية (ابن بسام ،ا. 1998:ج1ص61) والغدر، ولم يدم هذا الوفاق معهم سوى بضعة أشهر، فلما أطلع على نواياهم قلب لهم ظهر المجن، وانقلب عليهم، وهمّ بإخلاء المدينة من القرطبيين، وكان مبعث هذا الانقلاب الذي تمّ. عبّر عنه ابن عذاري بقوله: «فبرقت يومئذ للعدل بارقة خلب لم تكد تقد حتى خبيت» (إبن عذاري ،أ. 2009: ج3 ص121) هو ظهور المرتضى المرواني (هو عبد الرحمان محمد بن عبد الله بن الناصر، قام بالثورة على ابن حمود مستهدفا إرجاع عرش اسلافه من أيدي البرابرة الحموديين، وكان بسبب قيام المرتضى إلى خيرات العامري لما دخل قرطبة مع علي بن حمود كان طامعا أن يجد هشاما حيا فلما لم يجده أظهر خلافه وفهم علي ذلك وهم بقتله ففر خيرات بنفسه إلى شرق الأندلس واجتمع بالمرتضى وتألبوا ضد علي بن حمود ابن عذاري،أ. 2009: ج03، ص 123) والتفاف القرطبيين حوله، وكان من بين من سانده في هذه المواجهة خيران العامري صاحب المرية، وتألب ضده أمراء الثغور وأصبح كل شيء ضده، فكرهه الناس، ومكر به الصقالبة المروانيين وكانوا من خاصته، ودبروا له مكيدة أودت به، حيث قاموا باغتياله بالحمام في ذي القعدة سنة 408هـ–1017م. (المراكشي ،ع. 2006:ص46)

وعقب مقتل علي بن حمود خلفه أخوه القاسم الملقب بالمأمون، واستمر فيها نحو أربع سنوات إذ ثار عليه ابن أخيه يحي بن علي بن حمود، وأشار على أخيه عامل مالقة على أن يتولى ثغر سبتة، ويتولى هو مالقة، وحتى يستميل الأندلس في قرطبة وغيرها كتب إليهم.يقول لهم أن عمه اغتصب حقه في الخلافة، وأنه إذا لاق منهم تأييد فسوف بنصفهم، ويعيد العبيد والسودان في أماكنهم التي اعتادوا عليها. (الحميدي ،ف. 2004:ص33)

فاضطر إلى الخروج من قرطبة إلى الشبيلة أين بايعه أهلها (لويس سيكودي،ل.1996:ص25) فوجد في الأندلس يومئذ خليفتان مما أدى إلى هشاشة الوضع، يضعف الحكم المركزي بقرطبة (الشريفة،د. 2005: ص111) ولم يكد يحي يباشر مهامه حتى اصطدم بأهل قرطبة والبربر، عندما ارتكب ما عابه الناس على غيره، فساءت حاله، واضطر إلى الفرار عن قرطبة سنة 413هـ–1022م. (البكري،أ. 2003:ج2ص317)

ولما بلغ القاسم قرار يحي من قرطبة تحرك نحوها في نفس السنة وجددت له البيعة وبقي فيها سبعة أشهر، وأما يحي فقد أنحاز إلى الجزيرة الخضراء، وهي بالنسبة للقاسم قاعدته الخلفية المفضلة، وزاد من مخاوف القاسم، وتوسيع إدريس نفوذه نحو طنجة، وبذلك يكون الإخوان قد أحاطا بالقاسم وشدد عليه الخناق وضعف بذلك أمره، ووجها إليه الضربة الأولى التي هزت أركان عرشه. (خالد،أ. 2011: ص239)

ولم يدم حكم القاسم طويلا في قرطبة، فقد ثار عليه أهلها لما أبدى انحيازه للبربر فاضطر للمغادرة مرة أخرى نحو اشبيلية ومنها إلى شريش (هي كور شنونة وهي على مقربة من البحر، وهي مدينة حصينة حسنة الجهات، وتكثر بها الكروم والغلال، وشجر الزيتون والتين، وبين المغرب والقبلة من شريش يوجد حصن روطه على شاطئ البحر، بينهما ستة أميال، وهو موضع رباط وحقر للصالحين يقصد من الأقطار، الحميري ،ع. 1975 : ص340)أين قبض عليه، فأقتيد إلى مالقة وظل سجينا بها، ثم قتل على يد يحي بن علي بن حمود سنة، 427هـ-1035م.

بعد تخلص يحي بن علي من خصمه العنيد، تطلع إلى قرطبة، لاسترجاع نفوذه منها إلا أن أهلها سئموا من حكم البربر، وتصدوا لكل محاولة تمكن البربر من حكم قرطبة، وحتى لا تبقى مدينتهم محل إطماع البربر، عمدوا إلى شن حملة إبادة للبربر وقتلوا كل مشتبه فيه من البربر وكانت الحصيلة قتل ما يقرب ألف رجل من البربر. (إبن عذاري ،أ. 2009:ج3ص143)

وبهذا الحرب المتواصلة التي أنهكت الأندلسيين والبربر في قرطبة أو في مالقة، سقطت خلافة الحموديين بقرطبة، واكتفوا بمالقة والجزيرة الخضراء، وفي العدوة الجنوبية كان لا يزال نفوذهم في سبتة وطنجة .

بقي يحي بن علي بمالقة إلى أن قتل بقرمونة في محرم من سنة 427هـ (إبن عذاري،أ. 2009: ج3ص144) وبعد مقتل يحي أسرع رجل دولته بن بقية ونجا الخادم في استدعاء أخيه إدريس بن علي من سبتة لحكم مالقة بعد تنصيبه قام بتعيين أبن أخيه حسن

بن يحي بن علي حاكما على سبتة وطنجة، وتلقب إدريس بن علي بلقب المتأيد بالله، وبايعه رؤساء البربر وفي مقدمتهم حبوس بن ماكس كما تلقى التأييد والمبايعة من زهير العامري حاكم المرية ، وكان هدفهم في ذلك هو تكوين حلف بربري للوقوف في وجه العباسيين الذين باتوا يهددون المناطق البربرية المجاورة لهم، ولم يلبث أن أنظم محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة الذي تخلى عن خليفة بن عباد بعد أن تبين له حقده على البربر عندما أعمل السيف في البربر وعند أسوار قرمونة، حيث لم يرفع ابن عباد سيفه عنهم إلا بعد تدخل محمد بن عبد الله الرزالي لوقف المذبحة مدفوعا بعصبيته للبربر، ومن هنا يتجلى أن البربر كانوا يجنحون إلى عصيبتهم في حالة الخطر، وتلتئم بذلك أجزاؤهم المبعثرة، ويتناسون الخلافات السائدة بينهم. (شريفة،د. 2005:ص185) .

ومما هو جدير بالإشارة أن سقوط أمراء بني حمود بالغدر تارة ،وفي معمقة القتال تارة أخرى، قد أثار أطماع بني عباد الذين كانوا قد مضوا في تحقيق مشروعهم القاضي بالتهام مناطق البربر، فاجتاحت قواتهم قرمونة وضواحيها، فاستنجد محمد بن الله الرزالي بالبربر، فهبّت قوات باديس بن حبوس وإدريس المتأيد، وهموا بمهاجمة العباديين إلا أنهم تريثوا لعدم إجماع قواتهم فقرروا الانسحاب دون أن يحققوا شيئا من هذا التحالف. (الضبي، . 2004: ص39) .

إلا أن إسماعيل بن القاضي أبي القاسم بن عباد فسر هذا التراجع على محمل آخر وهو الضعف والجبن وتقفّى آثار هذا الجيش وانتظر إلى حين فارقت قوات باديس قوات المتأيد بالله، وتفطن باديس للمكيدة، واستغاث بقوات المتأيد التي لم تكن قد غابت عن أعين باديس، فاقتحم الجيش ودارت بينهم معركة دامية أسفرت عن مقتل إسماعيل ثم حزّ رأسه وحمل إلى إدريس المتأيد (إبن الاثير، . 2010:ج7ص624) وكان ذلك انتقاما ليحي بن علي ،إلا أن إدريس لم يكترث لذلك لأنه كان مشتغلا بمرضه بجبل بباشتر ولم يلبث أن فارق الحياة بعد يومين من هذه الحادثة 16 محرم 431هـ، ونقل جثمانه إلى مدينة سبتة ليوارى التراب.(إبن عذاري،أ. 2009:ج3ص289) .

وبعد مقتل إدريس المتأيد ،ثارت المنازعات بين أفراد الأسرة الحمودية إلى أن بويع لإدريس بن يحي إدريس بن يحي بن علي بن حمود بن أبي العيش ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس الأول، خرج مع أبيه لحي من قرطبة عندما خلعه البربر سنة 413، واستقر في مالقة حتى بويع له بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بالعالي ثم خلفه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود، واعتقله، ثم عاد ثانية إلى مالقة، وفي ولايته يقول أبو محمد غانم بن وليد المخزومي(إبن الابار، أ . 2008:ص 187):

واستقبل الملك إمام الهدى في أربع بعد ثلاثينـــــــــا

خلافة الله سمت نحـــوه وهو ابن خمس بعد عشرينـا

إني لأرجـوا يا إمام الهدى أن تملك الدنيا ثمانينـــــــا

لا رحم الله امرا لم يقل عند دعائي لك أمينـــــــا

وفي سنة 434هـ-1042م، بايعه أمراء البربر منهم باديس بن حبوس، أمير غرناطة، ورؤساء أستجه (مدينة كثيرة الأراضي منفسحة البطحاء، كثيرة المرافق بنيت على نهر تستحيل وهو نهر غرناطة ولها عدة أقاليم ومعاقلها كثيرة حصينة وجبالها شامخة تعلو جبال الأندلس وتخرج منه الأنهار ولا يدخلها نهر ولا يساويها جبل بالاندلس ولها معاقل منيعة وحصون وبينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا، إبن غالب ،م . 1955:ص215) ومورور ولوشة وكان إدريس هذا متناقض الأحول كما فمن سجاياه أنّه كان أرحم الناس قلبا، كثير الصدقات، ويكثر في الإخراج منها يوم الجمعة، ويعفو عن المطرودين من أوطانهم، ويرد عليهم ضياعهم وأملاكهم، ولم يسمع بغيا في احد من الرعية، وكان أديب اللقاء، حسن المجلس ويقول من الشعر أجوده ومع هذا فكان لا يصحب إلا كل ساقط نذل ولا يحجب أزواجه عنهم، ولا يتوانى في منحهم الحصون (إبن الابار ،أ. 2008:ص188)

ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس فخلعه سنة 438هـ-1046م وتلقب بالمهدي وكان لا يتورع في سفك الدماء، واستقام له الأمر في مالقة.

وبايعته الإمارات البربرية في الجنوب كما في مالقة ،وأحسن تدبيرها وكان ذا سياسة وحنكة، يوصف بالنبل والفطانة وحسن السيرة، قائما بأمور المملكة محسنا بالرعية، يحسن التصرف للمجابي، قائما بأمور الأجناد، وكانت نهايته على يد باديس بن حبوس الذي أعمل الحيلة في قتله حيث أرسل مع واحد من خاصته كأسا مسمومة نادرة، أحتسى فيها خمرا فكان فيها حتفه. (إبن الخطيب،ل. 2006:ص 141)

وبعد وفاة المهدي ابن إدريس الحمودي سنة 444هـ-1052م شهدت مالقة سلسلة من الاضطرابات وتداول على حكمها خلفاء ضعاف، فاتبل باديس بن حبوس بن زيري الصنهاجي أمير غرناطة هذه الفرصة، فتحرك بجيشه نحو مالقة واستولى عليها سنة 449هـ-1058م، دون مقاومة فخلع محمد المستعلى بن إدريس العالي آخر الحكام الحموديين بمالقة.

وبذلك أسدل الستار على آخر فصل من فصول الحموديين في مالقة وأفل نجمهم وانتهت رسوم عزّهم بتلك البلاد بعد أن قضوا فيها اثنان وخمسين سنة.

المصادر والمراجع:

ابن الأبار أبو عبد الله، الحلة السترراء، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 2008

ابن أبي زرع الفاسي، الأندلس المطرب يروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد

الوهاب بن منصور ط2 المطبعة الملكية الرباط 1420-1999

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت2010.

ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق سالم مصطفة البدري، دار الكتب العلمية بيروت

البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية بيروت 1414-2003

الجزنائي علي، جنى زهرة آلاس في بناء مدينة فاس، ت عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الربباط2008

ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية ط، صيدا بير 2006م

الحميدي أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس بيروت 1425، 2004.

الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت 1975.

ابن خاقان الفتح، كتاب تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس، المعروف مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق مديحة الشرقاوي مكتبة الثقافة الدينية ط 2، 2001.

خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا نهاية الخلافة في الأندلس منشورات الجمل بيروت 2011.

ابن الخطيب لسان، أعمال الإعلام فبمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بوفسنال دار المكشوف بيروت ط1 1956

ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتد؟أ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية 2002–1424

.دوزي رينهارت، تاريخ مسملي إسبانيا، ترجمة حسين حبشي دار المعارف، القاهرة 1963.

دوزي رينهارت، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كمال كيلالي ط1 2012.

شريفة محمد عمر دحماني، العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في جنوب الأندلس في عصر الطوائف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2005.

الضبي أبو جعفر، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت..

عبد العزيز فلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الاندلس والمغرب ،دار هومه، الجزائر 2007

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج من كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية ط1– 2009.

أبو علي صالح الايلاني مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار ابي رقراق، الرباط 2 2008

ابن غالب، قطعة من كتاب فرصة الأنفس، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية 1375–1955.

ابن الفرضي أبو الوليد، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، 2006

لويس سيكودي لوثينا، الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، دار سعيد الدين 1996

محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب دار الثقافة، الدار البيضاء 1406 – 1985.

المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكبة العصرية، بيروت

الناصري السلاوي أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية 1428– 200